

عـازِفُ النَّـــاي
أجمل حكاياتي
CHIHAB Kids

أجمل حكاياتي

عَازِفُ النَّايِ



مقتبسة من حكايات الإخوة غريم

رسوم : منصور عموري



كَانَ يَا مَا كَانَ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ، فِي مُقَاطَعَةِ سَاكْسْ مَدِينَةٌ تُدْعَى هَامْلِينَ، كَانَتْ مُسَيَّجَةً بِأَسْوَارٍ عَالِيَةٍ، يَعِيشُ سُكَّانُهَا فِي سَعَادَةٍ، لَكِنَّهُمْ جَمِيعًا كَانُوا يَشْتَرِكُونَ فِي عَيْبٍ كَبِيرٍ هُوَ الشَّرَاهَةُ. عَلَى طُولِ السَّنَةِ كَانَتْ رَوَائِحُ الْأَطْبَاقِ تَحُومُ فَوْقَ الْأَرْيَافِ عَلَى مَسَافَةِ 20 كِيلُومِتْرٍ. غَيْرَ أَنَّ أَهْلَ هَامْلِينَ الْمَسَاكِينَ دَفَعُوا ثَمَنَ هَذَا الْبَذْخِ فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ غَالِيًا... سَتَعْرِفُونَ كَيْفَ.



حَدَثَ الْأَمْرُ لَيْلَةَ عِيدِ الْمِيلَادِ لِسَنَةِ 1283 بِالتَّدْقِيقِ. فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ كَانَ الْبَرْدُ قَارِسًا جِدًّا غَيْرَ أَنَّ الْقَمَرَ كَانَ مُنِيرًا لِلْغَايَةِ. كَانَ رَجُلُ الْحِرَاسَةِ يُحَاوِلُ تَدْفِئَةَ نَفْسِهِ وَ هُوَ يَجُوبُ مَمَرَّ الْحِرَاسَةِ عَلَى أَسْوَارِ الْمَدِينَةِ. فَجْأَةً تَسَمَّرَ وَ لَمْ يُحَرِّكْ سَاكِنًا. فَرَكَ عَيْنَيْهِ جَيِّدًا لِكَيْ يُوَضِّحَ رُؤْيَتَهُ. لَمْ يَكُنْ يَحْلُمُ فَالسَّهْلُ الَّذِي كَانَ يَلْمَعُ جَلِيدُهُ تَحْتَ ضَوْءِ الْقَمَرِ، كَانَ يَقْطَعُهُ مَا يُشْبِهُ ثُعْبَانٌ أَسْوَدُ كَبِيرٌ يَتِيهُ ذَيْلُهُ فِي الظَّلَامِ...! وَ كَانَ يَتَحَرَّكُ وَ يَنْسَابُ نَحْوَ الْمَدِينَةِ !، إِنَّهَا الْجُرْذَانُ ! جَرَى الْحَارِسُ نَحْوَ جَرَسِ التَّنْبِيهِ. آهٍ يَا أَصْدِقَائِي !، لَمْ يَرَ النَّاسُ فِي حَيَاتِهِمْ مَشْهَدًا مِثْلَ هَذَا : كَانَتِ الْجُرْذَانُ سَمِينَةً سَوْدَاءَ وَ مُشْعِرَةً، عُيُونُهَا حَمْرَاءُ تَلْمَعُ كَالْجَمْرِ وَ أَسْنَانُهَا حَادَّةٌ وَ مُخِيفَةٌ ! وَ كَانَتْ بِالْآلَافِ، جَلَبَتْهَا رَوَائِحُ الطَّعَامِ الْمُغْرِيَةُ. يَرْكَبُ فِي زَحْفِهَا بَعْضُهَا بَعْضًا، تَقْضِمُ وَ تَنْقَلِبُ... مَشْهَدٌ يَقْشَعِرُّ لَهُ بَدَنُ أَشْجَعِ الشُّجْعَانِ.





فِي وَقْتٍ قَصِيرٍ وَصَلَتِ الْجُرْذَانُ مَدَاخِلَ الْمَدِينَةِ فَتَسَلَّقَتِ الْجُدْرَانَ وَ هَجَمَتْ عَلَى الْمَنَازِلِ. كَانَتِ الْحَيَوَانَاتُ الْقَبِيحَةُ، الدَّاكِنَةُ اللَّوْنِ تَجْرِي فِي الْمَطَابِخِ وَ تَهْجُمُ عَلَى مَخَازِنِ الْمُؤُونَةِ وَ عَلَى الْأَطْبَاقِ، وَ كَانَتْ تَلْتَهِمُ كُلَّ شَيْءٍ. عَشَرَةٌ، عِشْرُونَ، مِائَةٌ... مَلَايِينُ الْجُرْذَانِ. كَابُوسٌ حَقِيقِيٌّ ! كُلُّ شَيْءٍ ذَهَبَ، كُلُّ مُؤَنِ الشِّتَاءِ. لَمْ تَتْرُكِ الْجُرْذَانُ شَيْئًا، وَ لَا حَتَّى مَا يُطْعِمُ بَرْغُوثًا. لَمْ يَنْجُ مِنْهَا لَا قَبْوٌ وَ لَا سِرْدَابٌ وَ لَا خِزَانَةٌ مَهْمَا كَانَتْ مُحْكَمَةُ الْغَلْقِ. لَمْ تَعْرِفْ ذَاكِرَةُ الْإِنْسَانِ خَرَابًا مَثِيلًا لِذَلِكَ حَتَّى فِي أَزْمِنَةِ الْمَجَاعَةِ. فَقَرَّرَ عُمْدَةُ الْمَدِينَةِ أَنْ يُعْطِيَ مُكَافَأَةً قَدْرُهَا 50 فْلُورَنْسْ لِمَنْ يُخَلِّصُ مَدِينَةَ هَامْلِينَ مِنْ هَذَا الْوَبَاءِ.



وَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، دَخَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ وَ نَحِيفٌ، لَهُ شَعْرٌ طَوِيلٌ نَاعِمٌ أَسْوَدُ كَالْفَحْمِ وَ قُبَّعَةٌ خَضْرَاءُ، وَ كَانَ يَحْمِلُ جِرَابًا يَنْزِلُ إِلَى خَصْرِهِ. وَ بِمُجَرَّدِ أَنْ دَخَلَ طَلَبَ أَنْ يُكَلِّمَ عُمْدَةَ الْمَدِينَةِ. « قِيلَ لِي إِنَّ هُنَاكَ 50 فْلُورِنْس يَرْبَحُهَا مَنْ يَطْرُدُ الْجُرْذَانَ، حَضِّرُوا الْمُكَافَأَةَ إِذَنْ !

– مَاذَا ؟ أَنْتَ ... » وَ لَكِنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَكُنْ يُنْصِتُ لَهُ. رَأَوْهُ يَنْزِلُ السُّلَّمَ بِثَبَاتٍ وَ يَتَوَجَّهُ نَحْوَ السَّاحَةِ الْكُبْرَى. وَ هُنَاكَ أَخْرَجَ مِنْ جِرَابِهِ نَايًا صَغِيرًا مَصْنُوعًا مِنْ خَشَبٍ أَسْوَدَ وَرَاحَ يَعْزِفُ. لَا يُمْكِنُ تَصَوُّرُ ذَلِكَ الْمَشْهَدِ الْعَجِيبِ. سَنَوَاتٌ بَعْدَ الْحَادِثَةِ، كَانَ شَعْرُ الْهَامْلِيِّينَ يَقِفُ عِنْدَ تَذَكُّرِ تِلْكَ الْمُوسِيقَى. كَانَتِ الْأَصَابِعُ الْمُرْهَفَةُ لِلْعَازِفِ الْغَرِيبِ تَتَنَقَّلُ عَلَى النَّايِ كَأَنَّهَا أَرْجُلُ عَنْكَبُوتٍ وَ تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِهَا أَصْوَاتٌ غَرِيبَةٌ وَ حَزِينَةٌ لِدَرَجَةِ أَنَّ الْقُلُوبَ انْفَطَرَتْ لِسَمَاعِهَا.



بِمُجَرَّدِ مَا انْطَلَقَ فِي الْعَزْفِ حَتَّى تَوَقَّفَ الْقَضْمُ الْعَامُّ. وَ فَجْأَةً شُوهِدَتِ الْجُرْذَانُ تَخْرُجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، ثُمَّ مَعَ تَسَارُعِ النَّغَمِ كَانَ سَيْلٌ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ السَّوْدَاءِ الْقَذِرَةِ يَنْسَابُ فِي اتِّجَاهِهِ. كَانَتْ تَتَسَارَعُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، خَرَجَتْ مِنْ كُلِّ الْأَزِقَّةِ وَ تَحَلَّقَتْ حَوْلَ عَازِفِ النَّايِ الَّذِي بَدَأَ يَمْشِي بِبُطْءٍ نَحْوَ النَّهْرِ وَ جَيْشُ الْجُرْذَانِ يَتْبَعُهُ. أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُ النَّايِ مُقَطَّعَةً لِنِيَاطِ الْقُلُوبِ وَ كَأَنَّهَا تَأْتِي مِنْ عَالَمٍ فَوْقِيٍّ. فَجْأَةً، وَ كَأَنَّهَا جُنَّتْ، رَاحَتِ الْجُرْذَانُ تُلْقِي بِنَفْسِهَا فِي النَّهْرِ الْمُتَجَمِّدِ وَ هِيَ تُطْلِقُ صَرَخَاتٍ حَادَّةً وَ تَرْتَطِمُ بِالْجَلِيدِ الَّذِي تَشَقَّقَ تَحْتَ ثِقْلِهَا، فَصَعَدَتِ الْمِيَاهُ ثُمَّ نَزَلَتْ مُثِيرَةً زَبَدًا.





ثُمَّ انْتَهَى كُلُّ شَيْءٍ...! لَمْ يَبْقَ جُرَذٌ وَاحِدٌ فِي هَامْلِينَ.فَذَهَبَ عَازِفُ النَّايِ لِعُمْدَةِ الْمَدِينَةِ لِيَسْتَلِمَ مُكَافَأَتَهُ :

ـ جِئْتَ تَأْخُذُ مَالَكَ ؟ خُذِ الْخَمْسِينَ كُرُوتْزَرْ !

ـ عُذْرًا سَيِّدِي !، أَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ فْلُورَنْسْ !

ـ كُرُوتْزَرْ !

ـ فْلُورَنْسْ !

ـ كُرُوتْزَرْ !، مَاذَا كُنْتَ تَتَصَوَّرُ ؟! أَنَّنَا سَنُعْطِيكَ 50 فْلُورَنْسٍ ذَهَبِيَّةٍ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ ؟! هَيَّا، خُذِ الْكُرُوتْزَرْ وَ ارْحَلْ.

ـ آهٍ !، هَكَذَا إِذًا ؟!

سَكَتَ عَازِفُ النَّايِ وَ أَدَارَ ظَهْرَهُ لِلْعُمْدَةِ وَ خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ كَمَا جَاءَ.

فِي الْأَحَدِ الْمُوَالِي، كَانَتْ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ تَنْعَكِسُ عَلَى الثَّلْجِ الْأَبْيَضِ فَتَجْعَلُ الرِّيفَ كُلَّهُ يَلْمَعُ، وَ عَادَ الدُّخَانُ يَخْرُجُ مِنْ كُلِّ الْمَدَاخِنِ. فِي السَّاحَةِ الْكُبْرَى لِهَامْلِينْ كَانَ عُمْدَةُ الْمَدِينَةِ يَحْكِي وَسَطَ الضَّحِكَاتِ عَنِ الْمَقْلَبِ الرَّائِعِ الَّذِي نَصَبَهُ لِعَازِفِ النَّايِ، وَ كَيْفَ أَنَّهُ بِحِيلَتِهِ تَمَكَّنَ مِنَ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الْخَمْسِينَ فْلُورَنْس الذَّهَبِيَّةِ لِخَزِينَةِ الْمَدِينَةِ... وَ فَجْأَةً رَأَوْهُ مَشْدُوهًا، فَاغِرَ الْفَمِ وَ قَدْ اسْتَدَارَتْ عَيْنَاهُ. اِسْتَدَارَ الْجَمِيعُ آنَذَاكَ، وَ كَانَ... تَصَوَّرُوا مَنْ ؟ عَازِفُ النَّايِ..! دُونَ أَنْ يَتَكَلَّمَ أَخَذَ آلَتَهُ الْمُوسِيقِيَّةَ.. آهٍ ! يَا أَصْدِقَائِي ! كَانَتْ نَغْمَةً عَذْبَةً وَ مَرِحَةً تُعْطِي الرَّغْبَةَ فَوْرًا فِي الرَّكْضِ وَ الرَّقْصِ. وَ تَحَوَّلَتْ أَصَابِعُ الْعَازِفِ إِلَى عَفَارِيتَ تَقْفِزُ عَلَى النَّايِ بِصِفَةٍ أَسْرَعَ وَ أَخَفَّ.



وَ هَكَذَا بَدَأَ كُلُّ أَطْفَالِ هَامْلِينَ، حَتَّى الرُّضَعَ الَّذِينَ لَمْ يَتَعَلَّمُوا الْمَشْيَ بَعْدُ جَيِّدًا، يَرْكُضُونَ مِنْ كُلِّ جِهَاتِ الْمَدِينَةِ وَ شَكَّلُوا دَائِرَةً وَ بَدَأُوا يَدُورُونَ وَ يَدُورُونَ. وَ بَدَأَ الْعَازِفُ يَمْشِي كَمَا فِي الْمَرَّةِ السَّابِقَةِ... اِرْتَعَبَ الآبَاءُ، وَ حَاوَلُوا الْإِمْسَاكَ بِأَبْنَائِهِمْ، أَوْ مَنْعِهِمْ مِنَ الرَّكْضِ، لَكِنَّ أَقْدَامَهُمْ كَانَتْ مَغْرُوسَةً فِي الْأَرْضِ وَ كَأَنَّهَا تَحتَ تَأْثِيرِ سِحْرٍ قَوِيٍّ. كَانَتْ نَغَمَاتُ النَّايِ تَتَسَارَعُ أَكْثَرَ فَأَكْثَر، خَرَجَ الرَّجُلُ الْغَرِيبُ ذُو الشَّعْرِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْمَدِينَةِ، قَطَعَ السَّهْلَ وَ دَخَلَ فِي مَغَارَةٍ فِي الْجَبَلِ. تَبِعَهُ كُلُّ الْأَطْفَالِ وَ لَمْ يَظْهَرُوا بَعْدَهَا أَبَدًا! أَبَدًا.

